مـلامــح فى وجــوه

" الثعلـــــب فـــــــــات "

- يمشـــى بـــــــلا صوت كأنه لا يسير على قدميه ، دائمآ تفاجأ به على رأسك أو بجوارك ، لا أظنه طرق يوما بابا مواربا أو مفتوحا ، أما الأبواب المغلقة فله وسائله التـــى لا تنتهى لمعرفة ما يدور خلفها ، لكن ليس من بينها أبدا أن يطرقها مستئذنا ، أو يدخلها بقامة مشرعة ، وخطى ثابته واضحة .

- يجلـــــس راجعا بجذعه إلى الوراء كأنه يحذر أن يتلقى ضربة مفاجئة من محدثــه ، أو منكفـــــئا إلى الأمام كأنه يوجهها ، أو كأنه بصدد أن يهمس بسر خطير .

- أحاديثه إلى مجموعة من الزملاء تأخذ دائما طابع رواية الأسرار أو خلاصة الخلاصة ، أو ما يعلمه أحد غيره ، ويختارها بعناية فائقة لتقول إلى جوار ما تقوله شيئا آخر يشى بصلاته بأصحاب النفوذ والشهرة ، وبما له عندهم من مكانة ، ويبدو وكأنه لا يقصد حين يبث فى هذه الأحاديث ما يزيل أى شك فـى صدقها ... وهو فى النهاية , وبمعنى من المعانى يعتبر ملكا من مـــــلوك الحديث ، لوقت يطول أو يقصر وفق نوعية من يستمعون إليه ، وقد يبقى بالنسبة لكثير من الناس ملكا للفكاهة كذلك .

- ذكـــاؤه العملـــــى ينفذ فى مشكلات الحياة اليومية كالسكين فى الزبد ، وشبكة علاقاتـــــه التى يختارها بحرص صياد ماهر ، ويرعاها

بصبر من يعرف حدود ملل الناس ، وإن كانت تتمزق دائما على حدود مللـه هو ، وحواس يقظة على ما يريد هو فقط .

- ذكاؤه النظرى يلمع احيانا فى جملة عابرة كضوء نجمة تومض ثم تختفى فى ظلمات سحيقة ، ولعل ذكاؤه ذلك يحتجب خلف رغباته اللاهثة أبدا وراء متطلبات الحياة العملية اليومية ، وفى رأيه أن الذكاء النظرى حماقة يتسلى بها أذكياء حمقـى يقول ضاحكا : إنهم يكتشفون قوانين الحياة أما نحن فنستخدمها، إنهم يميزون الحقائق من الأوهام ، أما نحن فنعرف كيف نستخدم الحقائق والأوهام معا ؟!

- فى عينيه سوف تجد دائماً نظرة لا تتغير ، وهى نظرة بلا عمر ليست نظرة طفل أو شاب أو ناضج أو كهل ، ولكنها نظرة شك عميق وارتياب وتوجس ، تبقـى من بداية الحديث إلى نهايته ، سواء أكان حديثك أم حديثه ، تساير الكلمات ، تـتلمس انطباعات الوجه ، تقرأ المعانى الظاهرة والخفية وكأنها شـــــراك منصوبة ، يبقى ذلك الشك هو اللون الكامن فى أعماق تلك النظرة ، كامن فى السواد والبياض ، أحيانا تتهلل تلك النظرة أو تحزن ، تنتصر أو تنهزم ، تسأل أو تجيب ولكنها فى كل الحالات تبقى نابضة بذلك الشك العميق والارتياب والتوجس فى الفرح والحزن والنصر والهزيمة والسؤال والجواب جميعاً .

- ولأن الشك فى جوهره حركة متعاقبة فى اتجاهين أو فى عدة اتجاهات ، فإن هذه الحركة المعذبة التى تبدأ رحلتها من عينيه ،

تنساب إلى اليدين والقدمين والجسد فلا تعرف حقا متى يهدأ أو يسترخى أو ينام صاحبها ؟

سوف تـــــرى تلك النظرة تطل من عينيه فى اليوم الأول لمعرفتك به وقد لا تســـــتغربها فى ذلك اليوم ، ولكنك سوف تجدها تطل عليك من عينيه بعد سنين من معرفتك به لو عرفت كيف تبقى على علاقة معه طوال هذه السنين .

هو دائما شخص ناجح فى حياته العملية والمهنية والاجتماعية أصدقاؤه بلا حصـــــر ، يخسرهم بسهولة ، ويعوضهم بسهولة أكثر ، لا يعرفون بعضهم , ولكنهم جميعا يعرفونه يجمعهم ضعف مشترك أمام وعود لا يكف عن بثها ، وخدمات هى نوع من الوعود بخدمات أكثر .

وأنت أمام هذا النجاح المؤكد قد تجد نفسك تقوم نيابة عنه بتفسير سقطات لسانه ، وسقطات سلوكه بما لا يتناقص مع هذا النجاح ، ولكنه دائما وفى الوقت المناسب يقوم نيابة عنك بوضع الأمور فى نصابها ، فترى لأول مرة إلى أين تمتد جذور ريبته وشكه ...

تقول له يوما :

- علام الأسف ؟ لقد بذلت كل ما فى وسعك ؟!
- وكيف عرفت ما فى وسعى ؟ ثم يضيف متهكما :
- إذا كنت أنا نفسى لا أعرفه .

تقول مترددآ :

- مهما تكن النتيجة فهى أفضل من استمرار التمزق .

فيردد متسائلا :

- حزين من أجلى ؟
- وهل تشك فى ذلك ؟
- لا ، إذا شككت فى كل الناس ، ما سمحت لنفسى بالشك فيك أنت !
- من يقبل بالشك فى جميع الناس ، كيف ينجح فرد واحد فى كسب ثقته ! ؟

وفـــــى الغالب أنت لن تنطق بهذا الجواب ستكتفى بأن تديره فى رأسك وأنت صامت
فيقول لك :
-أراك صامتا ... لم لم تعلق على كلامى ؟
فترد بيأس : أحيانا يلجمنا مديح الأصدقاء
- نعم .. الأصدقاء .. الأصدقاء .. صحيح .. صحيح .

- كلماته كلها منظومة فى ذلك الخيط الدقيق الممتد بين الجد والهزل ، بين القبول والرفض , بين الرضى والغضب وسوف تتعب حتى العياء لو حاولت أن تمسك به من كلمة قالها ، أو حتى تستشف حقيقة ما يريد أو يحب أو يكره .

ملامح وجهه ، مثل كلماته تملك هذه القدرة الفذة على الانتقال فى تعبيراتها بين الجد والهزل ، والقبول والرفض ، والرضا والسخط

الحياة بجواره أو العمل معه، هي حياة في أرض مزروعة بالألغام، والقمح والشعير، قمحها له وشعيرها لمن يرضى عنه، وألغامها لمن يغضب عليه، ومشكلة من يقتربون منه، انه بريدهم أن يزرعوا القمح ويحصدوا الشعير، وإذا لم تعجبهم القسمة فعليهم أن يكونوا هم حصادا للألغام، التي لا يعرفون مكانها ولا متى تنفجر؟!

الحب الوحيد الواضح فى حياته هو حبه لذاته ، والكره الوحيد الخفى هو كرهه لذاته أيضا ، ولكنك سوف تحتاج إلى وقت طويل من القرب منه لاكتشاف ذلك الكره الخفى المستكن والذى يبدو أحيانا وكأنه نوع من الاحتقار لهذه الذات تشف عن ذلك محاولاته المستميتة والغير

مباشرة لمعرفة ما يقول الآخرون عنه أو رأيك أنت فيه ! ثم إصراره على إمتحان الرأى المعلن بأكثر من طريقة ، منك أو منهم .

وبين هذين القطبين من الحب والكراهية ، يظل يدور ويتمزق ، ويدور ويتمزق معه الأهل والأصدقاء والكلمات والمواقف .

- الأطفال وحدهم هم الذين ينجون من عالمه المتقلب المضطرب ، ومع أن أحاديثه عن حبه لهم لا ينتهى ، فإنه بفشل فى الاقتراب من عالمهم ، قد ينجذبون إليه لاول وهلة ، ولكنهم يدركون بغرائزهم الملهمة ، والباحثة عن الحب والامان بلا شروط ، أنه هو غير آمن وأن كل ما بيديه من عواطف هى شروط لصفقة مبهمة فيهربون منه ومنها .

- أحيانا يبدو أن نجاحه العملى والاجتماعى ليس إلا محاولته اليائسة المستمرة لتحسين صورته أمام نفسه أو أمام الناس ، وقد لا تكون صورته الحقيقية بهذا القبح الذى يراه ، فنجاحه نفسه ما كان يتحقق لولا العديد من الصفات والقدرات الجيدة التى يمتلكها ولكنه فى حيرته وقلقه وتقلبه وارتيابه لا تكاد تستقر نظراته على هذه الصفات ، ومع ذلك يبقى هذا النجاح صخرة نجاته وسط هذه العواصف المظلمة .

- آخر شىء سوف تكتشفه وغالبا ما يحدث ذلك فى لحظات هزيمته أو بؤسه ، هو ذلك الحزن المستكن فى أعماقه وهو حزن يمكنك أن تراه فرحه وانتصاره ، فهذه اللحظات ا تكون نده أبدا نقية أ خالصة ، ولو نفذت الى ما

وراء صخب النجاح وضجة الفوز لتأكد لك ذلك الحن العميق الدقيق هـــــو وحده الذى ينجو من واج شكه وارتيابه ، وهو الحقيقة الأليمة الدائمة والمستترة وراء كل المتغيرات .

- هذا الحزن قد يستبقى من حوله عددا من الأصدقاء لهم صبر الأنبياء ، وفضول من يعشق المعرفة ... غالبا ما يتساءل هؤلاء ... متى ياترى يأتى فرحه العظيم كذلك ؟؟

وبالتأكيد سوف يلاحظون أن فرحه العظيم يأتى حين يلقى إنسانا فيه قدر واضح من الصدق والبساطة والتلقائية .
يقبل على هذا الإنسان مغردا بالأفتنان والإعجاب يشيد به ، يتحدث عنه لمن يعرف ولمن لا يعرف . وكأنه يرى هذا النوع من الناس لاول مرة .. ! متى يدوم هذا الفرح ؟ ... ربما أياما ربما شهور ا يحرص هو فيها أن يقدم أبهى صورة له لنفسه أمام ذلك الصديق ... وأمام أول اختلاف فى تقدير الأمور ... يبدأ فى النظر لهذا الصـــديق بعين مستربية ، وتبدأ معزوفة الشك المرير ... وتبدأ الازدواجية القاتلة...، يبدو فى وقت واحد وكأنه يمنح ثقته بغير حدود ، ويرسل ورائها جواسيس شكه بغير عدد كذلك .
وأحيانا يبدو المشهد القاسى وكأن ثقته تلك ليست سوى مجرد إغراء يبثه فى طـريق صديقه ليطمئن إليه ليظهر على حقيقته ، لو كانت له حقيقة أخرى ، لوكان صـــدقه مجـــرد قناع ، أو مجرد حيلة العاجز ويوم يعثر فى حياة ذلك الصديق على لحظة ضعف ، أو نقيصه خافية فى الماضى أو فى الحاضر , يبدو وكأن فرحته الحقه قد جاءت أخيرآ .
يصرخ لنفسه وأحيانا لمن حوله .

ألم أقل لكم ؟ هكذا الناس ، هكذا الإنسان وإذا لم يسعفه الحظ بمثل هذا الاكتشاف ... فأنه فى الغالب يسقط مثل هذا الإنسان من حياته ، ينساه ولان مثل هذا الإنسان لا يكون فى العادة من ذوى النفوذ أو الجاه ، فانه يجد الفرصة آن ذلك ليتحدث عن العلاقة الأزلية بين الطيبة والخيبة وقد يتذكر فجأة مثل هذا الصديق الطيب الخائب فيذهب إليه ... وقد يقدم له بعض العون فيما يظنه وحدته وفشله ... مؤكدا لنفسه أن الوحدة واليأس هما قدر الإنسان ، وأنه من الخير أن يبقى الإنسان وحيدا ويائسا فوق صخرة النجاح من أن يبقى وحيدا ويائسا مع الخيبة والفشل .